الفصل الأول:

حين دوّى الخبر

مرّت الساعات خفيفة على قلب الأم، وكأن الزمن قرّر أن يمنحها استراحة نادرة. جلست بين ابنتها مريم والجارة التي حضرت محمّلة بالقصص والأحاديث، حتى بدا البيت وكأنه عرس صغير تملؤه الضحكات والذكريات المتدفقة. كانت الأجواء دافئة، أنثوية بامتياز، تروي عطشها لونسٍ افتقدته منذ زمن. لكن نشوة اللحظة لم تكتمل؛ إذ اخترقت أصوات زمّور سيارة ماجد المتكررة جدار السكينة، لتعلن نهاية الجلسة على غير هوى الحاضرات. اضطرب قلبها، وهمّت بالقيام مسرعة وهي تحاول أن تُلبس اعتذارها ثوب الابتسامة، بينما يدا حفيديها الصغيرين تتشبثان بأطراف ثوبها في محاولة يائسة لعرقلة الرحيل.

كانت لحظة الفراق أقسى مما يمكن أن تحتمله الأم؛ لم تستطع أن تجيب بكلمات تليق بمقام المحبة، فاكتفت بابتسامة واسعة وهي تنحني على حفيديها، تطبع على وجنتيهما قبلات متلاحقة، كل قبلة منها تحمل رحيق الحنان المكبوت في قلبها. راحت تبحث بعجلة عن فردتي حذائها، بينما انطلقت مرفت، يسبقها صوتها، ترجُوها بإلحاح:

–أمي، أرجوكِ... ابقي قليلاً، فما جلسنا إلا دقائق!

لم تدرك مرفت أن عبارتها تلك، الخارجة من قلبٍ مثقل بالشوق، تحمل مفارقة لاذعة: أربع ساعات كاملة لم تكفِها لتشبع من دفء الأم، فبدت لها وكأنها لحظة عابرة. هكذا هو الحب حين يغمر القلوب، يختزل الزمن حتى يُذيب الساعات في ومضة.

كانت مرفت تعرف كيف تُبدع الحجج والطرق لتطيل بقاء والدتها، سواء بزيارة عابرة أو مكالمة عابرة، وكأنها لا تطيق أن تُغلق نافذة الوصل بينهما.

لكن الأم، برغم ميلها للبقاء، شعرت بأن واجب العودة أصبح حتمياً. فتوجهت نحو الباب، تتبعها ابنتها والجارة التي لم تكن أقل إلحاحاً منها، حتى انفتح الباب فجأة، ليطل وجه ماجد. بدا متجهماً في البداية، ملامحه مشدودة، قبل أن يلين صوته وبصره وقد ارتخى فيهما بعض من التعب.

كان ماجد قد ضاق ذرعاً ببوق السيارة الذي أطلقه مراراً دون جدوى، فترجّل غاضباً ليأتي بنفسه بوالدته. لكنّها باغتته بابتسامتها الدافئة وهي تخرج إليه قبل أن يصل، محاولة أن تذيب في لحظتها شيئاً من تجهم وجهه. بادرتْه بصوت قصير حاسم:

–لقد انتهيت، هيا بنا.

استدار ماجد مباشرة عائداً إلى السيارة، وقبل أن يفتح الباب لوّح لشقيقته بيده ببرودٍ ظاهر، مكتفياً بكلمة مقتضبة:

–سلام يا مرفت.

بقيت مرفت على عتبة الباب تحدّق في خطاه الثقيلة، وجهها يتلوّن بين الحزن ووشيك البكاء، لكنها تماسكت ولم تدع الدموع تخونها. خلف كتفها أطلت صديقتها الجارة برأسها، كأنها تحاول سرقة لحظة وداع للأم هي الأخرى، فيما الأم اندست إلى جانب ابنها في المقعد الأمامي.

أدار ماجد المحرك على عجل، فإذا بالصغيرين ينطلقان فجأة من جوار أمهما، يركضان بفرح طفولي ليلحقا بالجدة قبل أن ترحل. ألصقا وجهيهما بزجاج السيارة ملوّحين، فبادلتهم بابتسامة مشرقة ورفعت كفها مشيرة إليهما أن يبتعدا قليلاً عن العجلات.

ومع انزلاق السيارة في الطريق، تلاشت الأيدي الصغيرة في الظلام شيئاً فشيئاً، وبقي خلفها بيت مرفت يتقلّص في المدى، فيما الوجهة كانت واضحة: العودة إلى مخيم البريج، حيث ينتظرهم البيت المثقل بالهموم.

***

مرّت ثلاث ساعات ثقيلة، ولم يعد أبو ماجد. كان هذا التأخر سابقة لم يعهدها طارق قط، إذ جلس في الدكان برفقة أخيه الأصغر علي، والقلق يتسرب إلى أعماقه قطرة بعد أخرى. كان والده رجلاً منضبطاً لا يعرف الاستهانة بالوقت أو بمصالح الناس، فكيف يغيب كل هذا وهو يعلم أن ابنه يرابط في الدكان؟ وإن كان يظن أنّ الجار أبا خضر، الساعاتي العجوز، سيُغطي غيابه، فالأمر لا يستقيم مع طبع أبيه الحريص. لا بد إذن أن شيئاً جللاً قد وقع.

ما إن خطر هذا الاستنتاج في ذهنه حتى ظهر شاب فجأة، كأنه انبثق من العدم. مرّ مسرعاً أمام باب الدكان، ثم اختفى لحظة قبل أن يعود باتجاه حانوت أبي خضر. ارتسم على ملامحه ارتباك واضح، وكلماته التي انطلقت بسرعة بدت أشبه بتمتمات غير مكتملة. اقترب العجوز ذو الوجه المخروطي، فأبدى اهتماماً بالغاً، وأشار بيده إلى دكان أبي ماجد حيث يقف طارق. عندها اشتعلت الحواس في كيان الشاب الصغير، إحساس داخلي لا يخطئ: مصيبة قادمة.

لمح طارق شفتي الغريب تتحركان بكلمة فاصلة:

–هذه دكان أبو ماجد رحال؟

تجمّد الدم في عروقه، لكنه لم يمنح نفسه مهلة للتفكير. أسرع للخروج برفقة علي، ليقف عند باب الدكان في مواجهة القادم. كان رجلاً نحيلاً، عيناه غائرتان توحيان بالسهر والإنهاك، شعره مبعثر خفيف في المقدمة وأشعث على الجانبين. قميصه الأزرق الباهت متدلٍ بلا أزرار، يفضح فانيلته الرقيقة، بل ويكشف عظام صدره البارزة. مشهد أقرب إلى إنذار صامت بما سيحمله.

كرّر الرجل بصوت مضطرب:

–هل هذا دكان أبو ماجد؟

أجاب طارق سريعاً، وصوته يكاد يختنق:

–نعم... صحيح.

حينها جاء الخبر كالقنبلة، جملة قصيرة لكنها حطمت الجدار الفاصل بين القلق والكارثة:

–والدك دهسه جيب عسكري قبل قليل، وهو الآن في المستشفى...

لم يترك طارق للغريب فرصة ليكمل حديثه؛ شيء في نبرته المذعورة كان كفيلاً بأن يشعل كل أعصاب طارق دفعة واحدة. قفز نحوه كالمسعور، قبض بيديه المرتجفتين على كتفيه النحيلتين، وهزّه بعنف حتى ارتج جسده، وصرخ صرخة كسرت سكون الشارع:

–ماذا قلت؟! أبي؟! أعد ما قلت!

خرج صوته مبحوحاً، متقطعاً، خليطاً من رجاء ويأس وغضب. عيناه المتسعتان كانتا تنضحان بالذعر، فيما دموعه تكاد تسبق صراخه.

تلعثم الرسول النحيل، وصوته يترنح بين شهقة وأخرى:

–والدك... في المستشفى... يحتاج إلى دم، حالته صعبة جداً!

ارتجف قلب طارق، وكأن الكلمات خناجر تُدق في صدره.

" توقف الغريب عند باب الدكان، عيناه الغائرتان تترنحان وهو يلهث: أبوك... صدمته سيارة"!